تحويب

الساعة الأكثر ظلمة

نجوان درويش

الغارُ لم يقرض سوى أغلفة مجلدات وينستون تشرشل. في الشقّة ما يزيد عن عشرة آلاف كتاب. كلّها سالمة في رفوفها إلا كتب تشرشل (وللأمانة قرض فأرُنا القليل من غلاف مجلد لإوسكار وايلد كان متروكاً على الأرض). هذا من غرائب ما وجدت في حيفا بعد غيبة عام. هل يمكن أن يكون لفأر موقف سياسي، وهل أراد أن يزجرني على الاحتفاظ بالأعمال الكاملة لهذا الاستعماري الشرير؟ (أعجبني عنوان كتاب طارق علي: «تشرشل.. زمانه وجرائمه»، 2022).

كنتُ لما سمعتُ أن صاروخاً بالِيستياً أُطلق نحو حيفا قبل أسبوع، وجدتني بعد ساعتين أقطع المئة وثمانين كيلومتراً التي تفصل بينها وبين القدس. تغيرت السيارات وتغير الشخص الذي يسوقها، وما زال يقطع الطريق نفسه منذ حرب تموز 2006. «صليب طوله 180 كيلومتراً» لا ينفك يشعر ويقول لنفسه. حيفا قريبةٌ جداً من لبنان، ولَما يكون الجو صافياً تُلقط إذاعة جارتها صور وأحياناً إذاعة المنار.

للاقتراب من الخطر فعلٌ مهدئ. النوم في شقّة مكشوفة على البحر وليست بعيدة عن الميناء، المعرّض للصواريخ له فعل مهدئ. يُفكّر أيضاً في مفارقة أنه يتقاسم الخطر مع أعدائه، بينما روحه تتمزّق بلا توقف بين غزة وبيروت، وأن هذا أفضل من أن ينام في «مكان آمن». ينظر إلى مجلّدات الاستعماري الإنكليزي ويفكر في عبارة the darkest hour التي ارتبطت به وبالحرب العالمية الثانية من دون أن يكون هو من صكها أو حتى قالها. يُفكر أيضاً أننا الآن نعيش «الساعة الأكثر ظلمة»، وأن لا شيء يضاهي الفجر الذي سيليها.

7 أكتوبر مقاومةٌ بقامة ملْحمَة

هذا الباب الذي فتحته المقاومةُ الفلسطينية يقود إلى التذكير المفصّل، المعْرفي، الموثّق، بتاريخ وما قبل تاريخ إنشاء كيان الاحتلال الإسرائيلي

محمد بنيس

عام لا يُحدّ بشهوره أو أسابيعه بل بساعاته ودقائقه (أسوشييتد برس)

1.

فلسطينُ المُشمِسَة، من القدْس إلى حيْفا، ومن الخليل إلى غزّة، متوسط الأرض من جديد. لم يكن ذلك في الحُسبان قبل يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، الذي جعل العالم ينْتبه إلى وجود فلسطين، أرضاً وشعباً، لا ينفصلان. تلك هي فضيلةُ المقاومة، التي أعادت فلسطينَ إلى مكانتها، بعد أنْ وصل الجبروت الإسرائيلي حدّ مسح اسم فلسطينَ من خريطته التي بَشّر، من خلالها، بشرق أوسط جديد، يدّعي الإقبال على إنشائه.

عامٌ من المقاومة. حتى المنجّمون أخفقوا في التنبؤ بالبطولة المُعجزة للمقاومة الفلسطينية، على أرض غزة. هي معجزةُ هذه البطولة التي محتْ معجم الاستسلام، والتطبيع، والتفوّق الإسرائيلي والتكنولوجيا القاهرة، والشرق الأوسط الجديد، وأبْدلتْه بمعجم العلم الفلسطيني ذي الألْوان الأربعة، والكوفية، وكتائب المقاومة، وعبقرية الإنفاق، وحرب العصابات، ووحْدة قصائل المقاومة، والاستشهاد، والحاضنة الشعبية، وجبهة الإسناد، وتضامن الشعوب والأحرار. باكتساح المعجزة وسائلَ الأخبار والدعاية الكاذبة، تعرّف العالم على علم فلسطينَ والكوفية في ساحات الجوامعِ والمدن والجامعات، من أوروبا إلى الولايات المتحدة، وفي بلاد عربية وإسلامية ارتفع العلم بخفقانه وسط الأعلام الوطنية، لتأكيد الوحدة. عامٌ كامل من مقاومة لا خضوع فيها للعدوان الإسرائيلي المُميركي، متواصلاً بليالي الدمار والقتْل ونهاراته. مشاهد الإفناء، في وحدها التي يتباهى بها الاحتلال الإسرائيلي. وطيلة النّهار والليل يبحث شعب غزة عن مكان آمن فلا يقابله سوى الجوع والعطش والقتل. والمقاومة تصرّ على الذي وحده يجب أن يكون، البقاء الحرّ على الأرض.

كنّا، في المغرب، نعلمنا كلمة «المقاومة» من حركة التحرير الوطني ضدّ الاستعمارين الفرنسي والإسباني. شعارُها الاستقلال وتحرير الأراضي المَغربية، التي أخضعتها الحماية لسلطة الدولتَيْن الاستعماريتَيْن. كان ذلك في بداية الخمسينيات. عندما كان المَغاربة يسمعون، آنذاك، عن عمليات المقاومة كانوا يشعُرون بقرب حريّتهم، ومن أعماقهم كانوا يهْتفون. كذلك السابقون، الذين كانوا يتبادلون أخبار محمد بن عبد الكريم الخطّابي في الريف، مبدع حرب العصابات، التي قاوم بها الاستعمار الإسباني في الشمال وحقّق بها انتصاره التاريخي في معركة أنوال، صيف 1921، فيما الفلسطينيون، الذين كانوا يتابعون بشغف أخباره، كما تعلّم منه الفيتناميون في الفترة اللاحقة.

2.

7 أكتوبر. يوم بمفرده يؤرّخ لزمن البطولة الخاص، في العصر الحديث. يوم حرّية فلسطين. ومنْ 7 أكتوبر 2023 حتى 7 أكتوبر 2024. عام لا يُعدّ بشهوره أو أسابيعه، بل بساعاته ودقائقه. طيلة العام، ظلت المقاومة الفلسطينية واقفةً في مكانها. لا تراجع ولا تهاوُن من الشدائد العليا وصلت فعْلها الذي لخّصته في كلمة واحدة هي «الحرية». كلمة تختصر ما لا بد منه في تحقيق العدالة، أي استرجاع الأرض المحتلة، منذ 1948. كلمة «الحرية» لدى حركة المقاومة الفلسطينية، ذات كثافة تاريخية ونفسية بعيدة الغور، حتى أصبحت طريقة حياة، بذائقة الخلود على الأرض الفلسطينية. بذلك أعطت المقاومة، خلال هذا العام، حالةً كاد العالم بنساها، في زمن الليبيرالية الجديدة، التي عزّت وحشيتُها في إخضاع البشرية لما تريد أن تكون عليه العالم، سوقاً للعبودية والنخاسة، من غير الأرض إلى شرقها.

ما أعطته المقاومة الفلسطينية بكلمة «الحرية» هو الفجْر الصّادق، لكل من لا يزال يعتقد أن الحرّية جدْرُ القيم الإنسانية ومنبعُها. لهذا ارتفعت أصوات شعوب وشبيبة منادية بالعودة إلى قيمة العدالة ورفض العنف والدمار والقتل. نداءٌ من أعالي أسوار المقاومة، يرحل ليفتتح الآفاق. شعوب عربية وإسلامية أعلنت النداء إلى جانب شعوب وشبيبة غربية. جاء 7 أكتوبر بـ«طوفان الأقصى»، وجاءت المقاومة، هو الردّ على العدوان الإسرائيلي، الممتدّ منذ سبعين سنة، بما يحمل من احتلال الأراضي، ومصادرة الأملاك، ومحاصرة ومراقبة المدن والقرى، وفي مقدمتها قطاع غزة، وانتهاك حرمة الأماكن المقدّسة الإسلامية والمسيحية، بعنوان المسجد الأقصى الذي هو العنوان الأكبر لهذه الانتهاكات. وتجاوبت الأصواتُ ضد سلوك الغرب المنتصر لسياسة العدوان الإسرائيلي فيما هو يدوسُ القيم الإنسانية التي كان ذات يوم أعلنها، وجعل منها علامةً على تحضّره وتمسّكه بالحرية والعدالة والديمقراطية. لا شيء من ذلك، في التصريحات والأفعال. الغرب، اليوم، هو غربُ الاستعمار وغزو البلاد واستغلال الشعوب. غربُ اليمين الفاشي، الذي يناصر إسرائيل ليناصر نفسه، بالعدوان على الشعب الفلسطيني.

3.

لم تُعد المقاومة كلمةَ فلسطينَ إلى مكانتها على عهد جديد من أخوة النضال المشترك عبر جبهة المساندة، التي عملت بدورها على التذكير بأن المقاومة الفلسطينية ليست يتيمة، وبأن المساندة تتعاظم بأخوّة النضال المشترك. أقربُ معاني الأخوّة ما بادرتْ إليه المقاومة الإسلامية اللبنانية في التنبيه على واجب السّير، يداً بيد، مع المقاومة في صدّ العدوان على غزة. وهو ما أقدم عليه اليمن والعراق. عهدٌ جديد، لا شك، في زمن الاستسلام والتواطؤ من طرف الأنظمة العربية التي تُوجّد بغيْرها، الأميركي، الإسرائيلي، الأوروبي، لا بنفْسها،

> يوم بمفرده يؤرّخ لزمن البطولة الخاص في العصر الحديث

بغُبويتها لا بحريّتها، التي ندمتْ عليها، أو ربما التي كانت دوماً عبئاً يضاعف الأعباء. هذا الباب الذي فتحته المقاومةُ الفلسطينية يقود إلى التذكير المفصّل، المعْرفي، الموثّق، بتاريخ وما قبل تاريخ إنشاء دولة الاحتلال الإسرائيلي. إذْ، لتنبّق الذاكرة يقظة. لأن الحركة الصهيونية تأسست ضد تاريخ مشحون بكراهية الغرب المسيحي لليهود. كما أنها حلّتْ بالأرض الفلسطينية في شروط الهيمنة الاستعمارية الفرنسية. الإنكليزية بعد الحرب العالمية الأولى، ثم الأميركية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. نعم، التذكير، بكل ذلك، ضرورةٌ، في عنفوان الحرب والعدوان وما وُوجه به من تضحيات لا تُقاس إلا بعظمة الحرّية. «إسرائيل» والغرب والعرب المتواطئون يدركون أن إخْضاعهم للفلسطينيين، وللشعوب العربية ولجميع المناصرين للمقاومة الفلسطينية، يبدأ بمسْح الذاكرة التاريخية للمأساة الفلسطينية وتبديل معاني القيم الإنسانية. هذه وظيفةُ مؤسسات الدعاية الضخمة. ومساندة المقاومة تتوسّع باستحضارها. هنا، في فلسطين، ذاكرةُ الأرض والشعب الفلسطيني تؤبّدها المؤلفات والأعمال الأدبية والفنية والآثار، مثلما تُحييها الثقافة الشعبية، في الغناء والقصص والسّير الشعبية والرقص واللباس والطرز والطبخ والخزْف والعمارة وآداب السلوك.

4.

عامٌ من وقاحة الغرب في الدفاع عن العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني في غزة ثم أخيراً على الشعب اللبناني. للغرب مراتب. هناك الغربُ الأميركي الذي يبرّر برتبته الأولى، المشاركة المباشرة، كلاماً وموقفاً وسلاحاً، في العدوان بتبديل معاني القيم، بعدم إزعاج الاحتلال، بالرواية الإنجيلية، وبمنطق «المصالح القومية» السيّدة، المكشوفة، من غير زخرفة بلاغية. وكان الغرب الأوروبي، طيلة العام، يضاعف من احتضان «إسرائيل» بأذرعه العسكرية وحواجزه القانونية وإعلامه المسعور. الوقاحة، هنا، تدل على الوجه العلني في الفعل العدواني، والجرأة على تعمّد اختراع الأكاذيب وعلى تخييش مشاعر الكراهية والحقد، ونكران واقع الحصار على غزة وإقامة المزيد من المستوطنات واستباحة الأماكن المقدسة، في وصف «طوفان الأقصى» يوم 7 أكتوبر. لغة الوقاحة يتقنها سادةُ الاستعلاء، الهيمنة، التفوق العسكري والإعلامي والتكنولوجي. هي اللغة التي يُشْهرونها في المحافل الدولية كما في مناسبات المباهاة والتفاخر بدعم العدوان على الشعب الفلسطيني.

لكنه أيضاً عامٌ من مواقف وكتابات وندوات رائدة لدول وكتّاب ومثقفين وفنانين غربيين. ما ساهم به أوروبيون وأميركيون، من أصحاب النفوس الحرّة، أصبح ذخيرةً لإعادة قراءة زمننا وزمن العدوان الإسرائيلي. وكانت الدعوى التي رفعتها جنوبُ أفريقيا ضد «إسرائيل» أمام «محكمة العدل الدولية» قيمة الحرية على أرض غزة ومقاومةً لأيّ مساس باستقلال لبنان وتمجيداً لحرية اللبنانيين.

يدّعي الاحتلال الإسرائيلي، منذ إنشائه حتى اليوم، أنه يختار السلام. ادّعاءٌ ماكر. كذب يتوارى ليَنْكشف باختيار سياسة الميْز العنصري ضد الشعب الفلسطيني وإتقان إبادته. لكنه لا يريد أن يفهم هو، ولا شركاؤه الغربيون ولا المتواطئون العرب، أن الشعب الفلسطيني يسعى، بثبات المقاومة، إلى تحقيق الحرية. هي مقاومة بقامة ملحمة، يتوقف عندها الفلسطينيون والبلدانيون، ويتوقف مؤيدوهم من الأحرار في العالم. نصبٌ مرفوعٌ في فلسطين. نشيدٌ بعد نشيد. (شاعر وناقد من المغرب)

إطلالة

أين نعيش؟

سومر شحادة

مضى عامٌ على القتل، يطويه الاحتلال بتوسيع حرب الإبادة ضدّ فلسطين والمنطقة العربية، وانقضاء عام بحاله من غير أن تخفت حدّة القتل، على الرغم من الاحتجاجات التي شهدها العالم أجمع، وبالإشارة إلى أنّها حربٌ غير متكافئة، بل هي بوضوح حرب إبادة... انقضى، عام بهذه الصورة يدفع المرء إلى التفكير في العالم الذي نعيش فيه. أقصد تجربة كل البشر بوجود قاتل منفلت فرْض حتّى داخل المؤسّسة الأكاديمية الغربية نوعاً من الحظر. فـ«إسرائيل» اليوم فوق النقد. والصهيوني، فردٌ أعلى من الآدمي، حتى لو كان الآدمي أبيض البشرة. مع ذلك، وبتوسيع الحرب تكشّفت هذا العام تصوّرات مشوّهة تحيط بكيان الاحتلال. وهي تشوهات يجب الاعتراف بأنّها لصيقة بانهيارات «الربيع العربي». وتدفع إلى التساؤل إن كان بعض جمهور «الربيع العربي» يقبل أن ترتبط مسألة العداء لـ«إسرائيل» بالنضال لأجل الحرية؟ وهل بالإمكان أن يتواضع المرء في النقاش مع هذا التيار أكثر من ذلك؟

يتّفق المختصّون - من أمثال المؤرّخ إيلان بابيه - على اعتبار أنّ «إسرائيل» وجودٌ استعماري بالتعريف، أي إنّها قضية ورثها العرب من قرن خلا. وقد تراكبت معها طوال هذه العقود تعقيداتٌ لا سبيل إلى حصرها، مثل سياسات التوسُّع والاستيطان والفصل العنصري، وغيرها الكثير من ابتكارات العقل العنصري الصهيوني. مع ذلك، وبمضيّ عام قصفت فيه «إسرائيل» مشافي الأطفال، وطواقم المساعدات، والمسعفين، قصفت، حرفياً، كلّ شيء. يتأمّل المرء غير مصدّق الحال الذي صارت عليها النقاشات في الفضاء العربي العام، وفي الفضاء السوري على نحو خاص، وهو ما نشير إليه هنا. بلا شك فإنّ حرباً طويلة، وأزمة مفتوحة زمنياً ومغلقة الآفاق سياسياً، كما في الحالة السورية، تدفع إلى ظهور ثقافة جديدة. للأسف، نراها ثقافة إقصائية على نحو لا يُعقل. الثقافة السورية المقصودة التي ظهرت وباتت تُعبّر عن نفسها، ثقافةٌ مستغربة، وغير مفهومة لدى العرب. إنّها ثقافة متغرّبة عمّا يجاورها. مع ذلك، ما يقرؤه العرب على صفحات عدد من السوريّين يجب أن يُقرأ في سياقهم السوري، لا في سياق الصراع العربي أو الفلسطيني/ الإسرائيلي؛ إذ لا يمكن فهم الثقافة السورية الجديدة المتصدّرة خارج فكرة التخلّي التي عرفها هذا البلد، وقد تُرك لقدَره في استنقاع سياسي دولي، وفي ظلّ عقوبات لم تقهر سوى السوريّين العاديين الذين كان عيْشهم طوال سنوات الحرب، عيشاً يقترب من المستحيل، عدا عن فقدانهم بلدهم، ولجوئهم في أصقاع الأرض. اليوم، يخطئ من يقرأ الخطاب السوري - وهو خطاب جزءٍ من السوريّين ليس بوسعي تقدير نسبتهم - إلّا أنّه خطاب يكاد أصحابه يقولون صراحةً إنّهم مع «إسرائيل» ضدّ أنفسهم (على اعتبار أنّهم أصحاب الأرض أيضاً). ومن يقرأ هذا الخطاب - الذي يعادي مقاومة الاحتلال وتحديداً حزب الله - يُخطئ إن قرأه في السياق الفلسطيني، لأنّ ما صنعه هو سياق الحرب الأهلية السورية، أو الحرب السورية، أو الثورة السورية أو الأزمة السورية أو المؤامرة على سورية، أو.. إلى ما شاء الله من تسميات. فالنتيجة واحدة. لقد اختلطت المفاهيم وتعقدت المقولات، ولم يعد أحدٌ من السوريّين يسمع أحداً آخر.

مع ذلك، أخالُ أنّ النضال لأجل الحرية يبقى أرضية مؤكّدة تتجاوز الخلافات السياسية، وتأتي من صلب أحاديث «الربيع العربي». أقول أحاديث، لأنّ ما انتهى إليه الحال، يكاد يجعل من تلك السنوات أشبه بالذكرى الضبابية، المؤكد اليوم، أنّ «إسرائيل» فرضت على الإنسانية كلّها: قانون القتل، والإبادة الجماعية، والتصفية. وهناك سوريون ما زالوا يتساءلون عن موقفهم من «إسرائيل»... لكن، هل بوسع مَن يهتفّ للحرية أن يكون مع «إسرائيل» بالمبدأ، أو حتى أن يكون محايداً إزاء إجرامها؟

(روائي من سورية)

كذا هي أحوالنا في المدينة اليوم

بيروت... العام الأوّل بعد غزّة

بدا عامُنا الغزّي في مثل هذا اليوم، بدا من سماء الحصار الذي كسرته قفزةٌ فوق سلكٍ شائكٍ وطائرةٌ شراعية. لكن كيف هو المشهد اليوم من بيروت؟

بيروت ـ **أنس الأسعد**

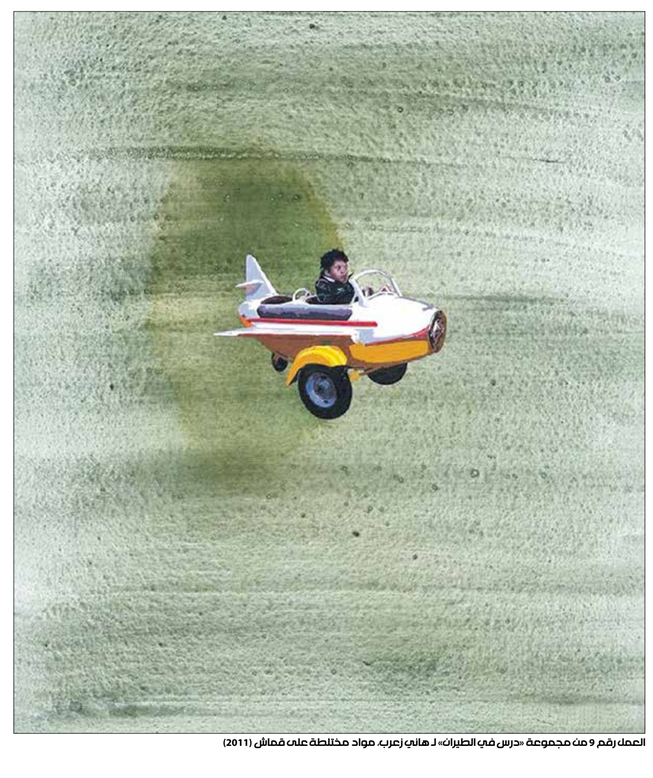

العمل رقم 9 من مجموعة «درس في الطيران» لـ هاني زعرب، مواد مختلطة على قماش (2011)

في ظهيرة بيروتية بمسْكٍ فتى وأمّه مُحمّلَيْن بالأغراض، مشهدٌ من المفروض أن يكون روتينياً، لكنه ليس كذلك بعد أن صار صوت الطائرات المسيّرة - فوقنا - يشغل المدينة بأسرها في كلّ دقيقة وكلّ لحظة. يقف الفتى لبُرهة ويختلس نظرة فضولية إلى السماء، ويقول مبتسماً ابتسامة المراهِق الغرّ: «لِيك وينها فوقنا»، فتنهرُه بذُعر الأمّهات: «لا تطلّع ولك لا تطلّع». يضعُ كلٌّ منهما نظره في الأرض ويجُدّان في السير. ها هي المستعمَرة تُنازعُنا سماءَ المدينة، وترِيد قهر الناس حتى لا يرفعوا رؤوسهم إليها مجدّداً، أمّا على الأرض فـ«عقيدة الضاحية» تنهش جنوب العاصمة، والبقّاع وصيدا وضور وقرى الجنوب، وأمس طرابلس، بالقنابل والفوسفور الأبيض.

بدا عامُنا الغزّي في مثل هذا اليوم، بدا من سماء الحصار الذي كسرته قفزةٌ فوق سلك شائك وطائرةٌ شراعية، ربّما تكون أبلغ التكثيفات عنها مجموعة الشكسبيلي الغزّي هاني زعرُب «درس في الطيران» (2009). لكن كيف هو المشهد اليوم من بيروت التي لا أحد سائد واحتجّ مثلها طبلة عام، ولا أحد قال ما يجب أن يُقال كما فعلت منذ اللحظة الأولى (طبعاً بيروت بيروتات حتى لا نُفرط في رمنسة مدينة قُتّلت مراراً بجرعات زائدة من الحنين إلى المُتخيَّل). وعلى سيرة اللحظة الأولى، أحتفظ بصورة «قديمة» لمجموعة شُبّان في مظاهرة أمام السفارة المصرية بتاريخ 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كلّما نظرتُ إليها أحسُّ وكأنّ دهراً قد مرّ لا عاماً واحداً... يا للزمن المتسارع.

هذا كلامٌ عامٌّ كان لا بدّ منه قبل أن ندلف لما نريد قوله: إنّنا لسنا بخير، ويُزيْف المرء على ذاته وعلى الآخرين حين يقول عكس ذلك. وهذه مسؤولية طالما تمّ التنصّل منها منذ معارك الخمسينيات والستينيات، وطالما جرى تحميل التبعات والنتائج كلّها لـ«ظروف المعركة مع العدو»، وإلى آخره من هذه العبارات، حتى رسونا في نهاية المطاف على أبشع أنواع الأنظمة الديكتاتورية. إنّنا لسنا بخير اليوم، وباختصار شديد، لأنّنا أسلمنا أمرنا لانتفاخ اليقين في ذواتنا، ولأنّ صخبَ كوننا ضحايا وتتعرّض لأبشع أنواع الإبادة قد طغى على أدائنا السياسي، في حين أنّ السياسة بطبعتها الدولية الذئبية القائمة غير مُبالية ولا تتأثّر بمثل هذا النوع من الكلام. ونحن لسنا بخير، لأنّنا لم نتعلّم من دروس ومآلات انتفاضات العقد الماضي وكيف تعامل معها «العالم الحُرّ». لذا، يبدو أنّ دروس الطيران التي فاتتنا كثيرة، وأوّلها وأقربها إلينا نقْدُ اليقين الراسخ في مشهدنا السياسي والفكري. ونحن لسنا بخير، لأنّ هناك غائبَيْن يعبدون القوّة، يتغنّون بـ«إنجازاته» وينتظرون حسم المعركة إسرائيلياً، لنسمع كلمتهم الأولى بعد الإبادة: «ألم نقل لكم؟».

في الأمس قصفوا «المصنع»، إنه المعبر البرّي الرئيسي الواصل بين سورية ولبنان، فعبْر النازحون، سوريون ولبنانيون، سيراً على الأقدام، إلى ضفّة سوريّة من المفترض أن تكون «آمنة»، لا ليس الأمر بهذه السهولة. السوريون هم أصلاً كانوا قد نزحوا إلى الجنوب والبقاع قبل عقد، وقتلت «إسرائيل» منهم منذ بدء العدوان أكثر من 170 شخصاً، يا للتبه الذي كَتَب على أهالينا. اقرأ تعليقات سريعة للكاتب عباس جعفر الحسيني عن حال التغريبة العاملية بعد نزوح قرابة مليون من أبنائه، يُنهيها بعبارة «علّمني يا جبل عامل كيف أرتيلك؟»، وأقول كم تليق هذه العبارة بأحوالنا المشرقية وقد مضت عقود من استقواء بعضنا على بعض فانتهينا إلى ما انتهينا إليه من خراب مُعمَّم لم يوفّر أحداً. هذا عن حال المعبر البرّي، أمّا المطار المدني - غُدنا مرّة أخرى لدروس الطيران - فبحال الاحتلال تطويقه وقصف محيطه، وبثّ الذعر بين الناس بإشاعة نيّته فرض حصار جوي، وسبق أن قصفته «إسرائيل» بالفعل عام 1968، ولم تتردّد حينها عن تدمير 13 طائرة من السرب اللبناني.

في كتابه «بيروت والزمن» يقرأ المؤرّخ كمال الصليبي (1929 - 2011) ثُلاثية الروائي ربيع جابر «بيروت مدينة العالم» بلا تفجُّع وبلا استنهاض مظلوميات تحتفرها الشعوب العربية بين النكبة والأخرى. يقرأ المؤرّخ المعروف بتفكيك الأساطير والخطابات ويقف عند رؤية جابر للزمن، بعد أن حدّثنا عن «الشخصية الخالدة»: عبد الجواد أحمد البارودي (الهارب من دمشق) وبكره «شاهين» الذي تمرّد عليه «نظر إليه نظرةً تفلح جملاً، بنظرة مجرم يُريد أن يخنقه بيديه العاريتين»، ثمّ خرج من بيت أبيه، لاحقاً بفقد الذاكرة، ويُقاتل بجوار أخيه عمر مع الجيش العثماني ضدّ الروس... إلى آخر هذه التراجيديا البيروتية والوطن اللبناني المؤسَّس على «النزوح من الجبل» كما يكتب.

يُؤشّر الصليبي مفهوم الزمن على الشخصيات ليقرأ حال المدينة من خلاله، فبيروت ربيع جابر، وفقاً للصليبي، لا جديد فيها يُخلَق ولا قديم فيها يُفقَد، بل كلّ شيء يتحوّل: «ألف عام ماضية في ألف عام واردة هو ذا الوقت، ولا تغرّنك الأشباح»، وفقاً للصوفية، أو كما يقتبس الروائي من رسائل الحكمة الدرزية مقطعاً بليغاً: «لأنّ الحجاب هو المحجوب والمحجوب هو الحجاب. ذلك هو وهو ذلك. لا فرق بينهما». وكذا هي أحوالنا في المدينة اليوم باختصار رغم ما نُشعر به من انكسار وتسارُع زمن طوى في شهر ألف عام ماضية بألف عام واردة.

7 أكتوبر بين الحدث والمسار التاريخي

يوسف م. شرقاوي

ثمّة إشكالٌ زمنيّ يتعلّق بالسابع من أكتوبر/ تشرين الأول كونه تاريخاً: فالسابع من أكتوبر هو حدث، فعلٌ مستجدّ، لم يسبقه فعلٌ يوازيه أو يضاهيه في الحياة الفلسطينية، وأثره الثقافي والرمزي وحتّى الذهني هو أثرٌ ممتدّ حتى اللحظة على نحوٍ ملحوظ، وهو أثرٌ عام، جماعي وجمعي. الإشكال أنّه يوجد تاريخان مفصليّان بدأ في اليوم نفسه، أو في السابع ثمّ الثامن من أكتوبر؛ فالسابع هو زمن الحدث المسمّى «طوفان الأقصى»، أمّا الثامن فهو تاريخ بداية مجزرة إبادة جماعية جديدة يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي بحقّ الغزّيين خاصّةً والفلسطينيّين عامّة. يُصبح هنا لا مناص من الفصل بين التاريخيْن؛ فالأول ناشئ، جديد، طارئ، أمّا الثاني فهو مسارٌ تاريخيّ للاحتلال. الإبادة مثلما قال النكبة حسب وصف الراحل إلياس خوري «مستمرّة»، وهي ظلّت تحدث بعد عام 1948 وحتى الآن». والإبادة هنا هي أيضاً أسبق من السابع من أكتوبر، كانت تحدث قبله، واستمرّت بعده. سرعان ما اختلطت السردية التي خلقها الفعل/ الحدث (أي السابع من أكتوبر) بالسردية التي استوجبتها الإبادة، فارتبط التاريخان، وليس ثمّة ما يعيب ارتباطهما، فكلاهما أصبحا واحداً، لكنّ الفصل ضرورة، فصل المجزرة عن الحدث، وتوصيفها بأنّها مسارٌ تاريخي لكيان استعماري هو شيء ضروري يُميّز القاتل عن القتيل باللحظة بالقول: السابع من أكتوبر فعلٌ وردّة فعل، في آنٍ معاً، على مجازر ومذابح أكثر من أن تُحصى في مسار الاحتلال، أمّا الإبادة فليست إلّا استمراراً لهذا المسار.

وقد نشأت مع هذا التاريخ حالةٌ جمعيّة، اشتبكت فيها الفضاءات جميعها. يمكن تسميتها وإطلاق عدّة أوصاف عليها، لكنّ التعريف الأدقّ قد يكون «المقاومة الثقافية» كما يعنيها رولاند بليكر، وهي تلك التي «تقع في عدد لا يُحصى من الممارسات غير البطولية التي تُشكّل عالم الحياة اليومية وروابطها المتعدّدة بالحياة العالمية المعاصرة»، أو كما يصفها إيلان بابيه بأنها «تؤكّد كيفية استخدام الممارسات الثقافية المختلفة لتحدّي ومحاربة قوّة مهيمنة، وغالباً ما تبني رؤية مختلفة للعالم في أثناء هذه العملية». قد يبدو من المبكّر القول إنّ الحدث (السابع من أكتوبر، وما تلاه) خلق معه في العالم وجهة نظر جديدة عن العالم (تستعير المصطلح هنا من لوسيان غولدمان)، لا سيّما على الصعيد الثقافي. إذ بات يُنظر إلى القضية الفلسطينية على أنها قضية إستملوجية (معرفية) بالتوازي مع كونها قضية سياسية. وهو ما أراده الفيلسوف والمؤرّخ الإيراني حميد دباشي الذي تثير فلسطين بالنسبة إليه، من بين ما تثير، مشكلة معرفية تتعلّق بطريقة إنتاج أوروبا وأميركا الشمالية المعرفة. وملخّص ما يريد دباشي قوله، من مقالة له عنوانها «أين فلسطين من العالم؟»، هو التالي:

«ليست القضية الفلسطينية مجرّد نضال شعب واحد من أجل وطنه، ففي هذا النضال صنع الفلسطينيون «عالماً» خاصّاً بهم، ننخرط فيه جميعاً لنُعيد تخيُّل جميع النضالات التي شهدتها العصور وصولاً إلى عالمنا المعاصر المتشكّل، إلى حدّ أنّ المناضلين من أجل العدالة في جميع أنحاء العالم صار العالم لهم كلّه مهيمنة، وغالباً ما تبني رؤية مختلفة فلسطينيًا. إنّ المكان الوحيد للفلسطيني في العالم (قبل الصهيونية وبعدها) هو بإعادة صياغة العالم بأسره على أنّه لا تمكن معرفته إستملوجياً إلى أن (أو ما لم) يكون للفلسطينيّين أيضًا مكان في العالم». أنتج السابع من أكتوبر باعتباره حدثاً مسارات ثقافية ومعرفية جديدة، ولو كانت نادرة، نذكر منها إنتاجيْن فقط: معرض «ما تُقدّمه فلسطين للعالم» الذي أقيم السنة الفائتة بعد مجازر الإبادة في «معهد العالم العربي» بباريس والكتاب الجماعي الذي صدر عنه باللغة الفرنسية ضمن السلسلة الدورية «عربوراما» بالاشتراك مع دار النشر الفرنسية «سوي»، وكذلك العدد الخاص الذي قدّمته مجلة Yeni e التركية بعنوان «النضال الثقافي لفلسطين». يبدو مؤسفاً أنّ الخطاب الثقافي العربي ظلّ مشرذماً ومحصوراً في مواد متفرّقة وعشوائية بعد الحدث/ ثمّ المجزرة. ويبدو أنّه من الصعب البحث عنه. لكن نشأت، بدلاً منه، هرّةٌ في وعي جيل كامل، أحسّ بضرورة الاشتباك مع الفضاء/ الشأن العامّ، بالأدوات التي تبدو مُتاحة وممكنة الآن: العالم الرقمي.

(كاتب فلسطيني)

يفتتح في «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة، غداً الأربعاء، معرض فنّي لأعمال الأطفال، يضمّ لوحات مستوحاة من رواية **رجال في الشمس**. المعرض، الذي يستمرّ حتى نهاية كانون الأوّل/ ديسمبر المقبل، يهدف إلى التعريف بالقضية الفلسطينية وتشجيع الأطفال على التعبير عن القضايا باستخدام الفنون.

تحت شعار **فلسطين القضية الادبية**، تحتضن «دار الثقافة محمد الشبوكي» بمدينة تبسة شرقي الجزائر، بين الخامس عشر والسابع عشر من تشرين الأوّل/ اكتوبر الجاري، فعاليات الدورة الخامسة عشرة من **ايام تبسة الادبية**. تتضمن التظاهرة لقاءات وندوات ومعرضاً للكتاب، كما تُقام على هامشها مسابقة في القصّة القصيرة، موضوعها «طوفان الاقصى» بالتزامن مع السنوية الاولى للعملية.

عند السادسة (بتوقيت إسطنبول) من مساء السبت المقبل، يعقد «مركز حرمون للدراسات المعاصرة» ندوة بعنوان **مسار العدالة الجنائية الدولية في سورية ولبنان وفلسطين**، يتحدّث فيها الباحث السوري **المعتصم الكيلاني**، ويُناقش مسار ملفات الجرائم التي ارتُكبت في هذه البلدان، وتفلّت «إسرائيل» من القانون الدولي.